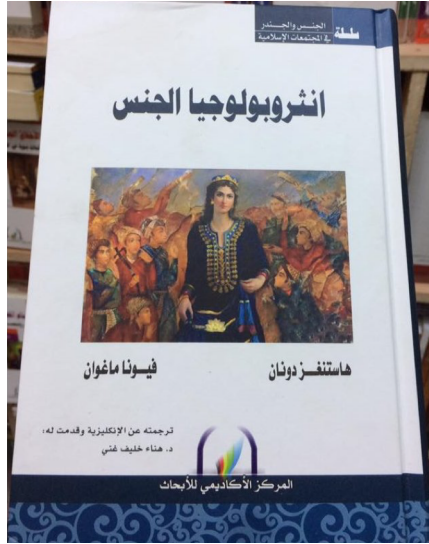


مراجعة كتاب أنثروبولوجيا الجنس

مبروك بوطوقة، جامعة تبسة، الجزائر



عنوان الكتاب: أنثروبولوجيا الجنس

تأليف: هاستنغز دونان وفيونا ماغوان

ترجمة: هناء خليف غني

الناشر: المركز الأكاديمي للأبحاث، العراق، 2017.

يعتبر الجنس في كل الثقافات ممارسة مثيرة للجدل، بل إن كلمة "الجنس" مفردة إشكالية بامتياز، ومجرد ذكرها حتى دون الغوص في مضموناتها ومعانيها، يسفر عن العديد من المشكلات.

ربما هذا هو السبب الذي دعا المترجمة العراقية هناء خليف غني أستاذة الترجمة في الجامعة المستنصرية بالعراق والمتخصصة في ترجمة الكتب الأنثروبولوجية إلى اختيار كتاب "أنثروبولوجيا الجنس" الذي ألفه الباحثان القديران هاستنغز دونان وفيونا ماغوان ليكون آخر ترجماتها الصادرة عن المركز الأكاديمي للأبحاث، بعد أن لاحظت أنه في المجتمعات العربية إبان العصور المزدهرة اندفع علماء المسلمين وفقهاؤهم في محاولة منهم لتنظيم الحياة الجنسية والتعريف بأدائها إلى التأليف في موضوع الجنس دون شعور بالحرج أو الحاجة إلى التستر أو التجاهل، فبرزت العديد من المؤلفات التي أسهمت في التأسيس لخطاب عربي قائم بذاته عن الجنس، أما المجتمعات العربية المعاصرة فأصبحت تميل إلى إحاطة الجنس وكل ما يتصل به بستار سميك من التجاهل والصمت العلمي والتربوي شبه التام، فأضحى الجنس يقترب في أذهان الناس بما ينافي الأدب أو الخلق السوي، وأضحى الحديث عنه يجري عادة بصيغة التلميح لا التصريح تفادياً للشعور بالحرج ومخافة أن يوصم المتحدث بالجرأة وتجاوز حدود اللباقة والأدب.

تبحث "أنثروبولوجيا الجنس" في الطرائق المتنوعة التي يعتمدُها البشرُ للحديث عن الأفعال والأنشطة والتجارب الحسية والجنسية وتجسيدها في الثقافات المختلفة، وخلافاً للكثير من الدراسات التي تناولت الجنس من موقعٍ نظري معياري بحث، تقارب "أنثروبولوجيا الجنس" هذا الموضوع الحيوي من الداخل، وتركز على آراء الأطراف المعنية به وتصوراتهم عنه، وتتفرد "أنثروبولوجيا الجنس" بأنها تهدف إلى مناقشة الدور الذي يضطلع به الاختلاف الثقافي في إنتاج التجارب المتنوعة والفئات التصنيفية الجنسية، لا الاكتفاء بالنظر إلى الجنس بوصفه نتاجاً لعلاقات الجنوسة أو الدوافع الذهنية أو الجسدية المجردة، مثلما هو شائع في الكتابات السابقة لعلماء الجنس والنفس.

يلعب الجنس دوراً محورياً في حياة حياة الأفراد والمجتمعات باعتباره إحدى القوى لاجتماعية المؤثرة، إذ يُعدُّ الجنس منتجاً ومولداً للهويات الاجتماعية التي تتأثر بدورها وتتقيد بأنواع العقود والارتباطات الجنسية، وتتأثر بطيف واسع من المواقف والرؤى والمنظورات التي تسهم الجوانب الاجتماعية والسياسية والعرقية والقومية والقانونية في بلورتها، لذا فإن أنثروبولوجيا الجنس هي في الوقت ذاته أنثروبولوجيا الدين والاقتصاد والسياسة والقراءة وحقوق الإنسان.

لعل أكبر المشكلات التي يواجهها هذا الفرع من الأنثروبولوجيا هي مشكلات منهجية بالأساس، وتمثل في صعوبة تطبيق مناهج البحث التقليدية لاعتبارات أخلاقية وعملية، لأن أهم سؤال على الباحث في هذا الحقل الإجابة عنها هو: كيف ندخل عقول الأفراد المبحوثين وأجسامهم؟، فالوصول إلى سلطة التجربة الجنسية وتقييمها تتصفان عادةً بكونهما أحداً أشدَّ جوانب الاشتغال صعوبة في الحقل الجنسي؛ وقضية الحصول على المعلومات الضرورية عن الممارسات والأفعال الجنسية أمر غاية في الصعوبة والتعقيد، لعدم توفر آلية تحقق من صحة ما يقوله الأخباريون.

بقي موضوع الجنس في الغرب طابوا معرفياً يتجنبه العلماء والباحثون خوفاً من التأثير على سمعتهم ومصداقيتهم، وساهم في ذلك انتشار مؤلفات مبتذلة رأى فيها الناس دعوةً للإثارة العاطفية الرخيصة، ومنها مؤلفات منظرية الكراسي الوثيرة التي تحتوي على صور السكّان المحليين بصدورهم العارية فيما بات يُعرف بـ "انثوغرافيا حلقات النهود والرّماح"، كما لعبت وسائل الإعلام دوراً محبطاً من خلال الترويج للجنس الرخيص في المستوى الشعبي، وكان لهذه الأمور تأثيراً كبيراً في كبح الاشتغالات البحثية الأنثروبولوجية بموضوع الجنس، وابتغاء تأمين موقع الأنثروبولوجيا ومشروعيتها في الميدان الأكاديمي والبحثي، لزم أغلب الأنثروبولوجيين التحفظ والصمت، وأجبروا على تحويل اهتمامهم إلى موضوعات أرقى وأكثر نبلاً من الجنس وهكذا، أقصي الجنس إلى أطراف البحث الأكاديمي، وبرز توجه دأب على الحديث عن الإطار المقبول للموضوعات الجنسية بصيغ العائلة

والزواج والقرباة والبناء الاجتماعي. ولإيراد مثال سهل على ذلك، يُلاحظ أن سفاح القربى أو الزنا بالحرام قد حظي بحصة الأسد من الاهتمام التّنظيريّ والبحثيّ مقارنةً بالعديد من جوانب الجنس الأخرى التي كان يمكن دراستها ومناقشتها.

كان لا بد من انتظار نهاية القرن التاسع عشر ليلقى موضوع الجنس اهتماماً منقطع النظير، ويتصدّر واجهة النقاشات التي احتدمت على نحوٍ مطردٍ منذ تحوُّله إلى موضوعٍ أكاديميّ يتهافت الباحثون على دراسته في العلوم الاجتماعية لكن الأنثروبولوجيا كانت ترزأ تحت ضغوط الرؤية الجنسية الإثنوغرافية الغرائبية المتطرفة إلى الآخر البدائيّ التي يترفع على قمتها الأفارقة الذين ترسّخت صورتهم بوصفهم نهيمٍ جنسيّاً وميالين إلى السيطرة، ويتمتعون بأعضاءٍ جنسيّةٍ استثنائيةٍ لا توازي قابليّاتهم العقليّة، وانسجماً مع ذلك مالت الروايات الإثنوغرافيّة في تلك المرحلة المبكرة نحو الكشف عن الجنس البدائيّ بأسلوبٍ عكسٍ هو احسن الأنثروبولوجيّين الجنسيّة أو الفكرة العامّة المهيمنة عن الجنس. ولهذا السبب، كان الاحتشام الأنثروبولوجيّ المتكلّف أمراً محتوماً لا فرار منه.

وحتى بعد حصول الأنثروبولوجيا على الشرعية المعرفية والمنهجية وتخلصها من الإرث التطوري والنظرة المركزية في بدايات القرن العشرين، بقي التحفظ سمة هامة في الدراسات الأنثروبولوجية التي تعرضت لموضوع الجنس، فعلى سبيل المثال بدا شعور "برونيسلا مالينوفسكي" بالارتباك واضحاً أثناء كشفه عن الممارسات الجنسيّة بين السكّان المحليّين، واعتذر عن تضمين كلمة "جنس" في عناوين العديد من كتبه على الرّغم من أن اهتمامه الأكاديميّ بالموضوع، وبنفس التحفظ جاءت الدراسات التي أجراها بعده الأنثروبولوجيين الآخرون وعلى رأسهم مرغريت ميد التي يعود لها الفضل رفقة مالينوفسكي في تناول الأنثروبولوجي للجنس حين بينا أن أن السكّان المحليّين في المناطق البعيدة هم كائناتٌ بشريّةٌ مثلهم مثل الأوروبيين والأمريكيين في بعض من الجوانب في الأقل، ومع ذلك مارست مفاهيم القرباة الأنثروبولوجيّة تأثيراً كبيراً في آراء طلائع الأنثروبولوجيّين في سفاح القربى والعلاقات غير الشرعيّة خارج نطاق الزوجيّة، إذ ارتبطت المحرمات أو التّابوهات على نحوٍ رئيسٍ بوحدة نواة العائلة المؤلفة من الأم والأب والأطفال على الرّغم من احتدام النقاش بشأن التفسير الدقيق لطبيعة هذه التّابوهات وحدودها. وأحد الأهداف التي يتطلّع كتاب "أنثروبولوجيا الجنس" إلى تحقيقها كما يذكر مؤلفاه هو وضع الأنثروبولوجيّين مرّةً أخرى في قلب السّجلات الجنسيّة وتسليط الضوء على طبيعة إسهاماتهم في تفسير إظهارات الجنس والجنسانية المحليّة إلى جانب السياسات والاستراتيجيّات الجنسيّة.

وقد استطاع الكاتبان الاستفادة من مجموعة كبيرة وثرية من الأدبيات والدراسات والبيانات التي أنتجتها النظم المعرفية المختلفة مثل الاجتماع والتاريخ والاقتصاد والدراسات النسوية والدينية. ولعل أهم ما يُحسب للكتاب - بفضل توظيفه هذا الكم الكبير من المعارف والمعلومات - نجاحه في تقديم مقارنة ثقافية واجتماعية للجنس بأسلوب عابر للنظم المعرفية.

أما عربيا فيكتسي كتاب "أنثروبولوجيا الجنس" أهميته في المساهمة في توفير الآليات العلمية والمنهجية لإعادة الجنس إلى صلب الخطاب العلمي، لأن مفهوم الجنس عند العرب انتقل إلى خارج الخطاب كما ذهب إلى ذلك عبد الصمد الديلمي، بمعنى أن الجنس لم يعد موضوع خطاب علمي عند هذه المجتمعات، بل تحول إلى موضوع مزاح وسخرية في التبادل الكلامي اليومي، "والعرب الذين كانوا يمتلكون منذ أربعة عشر قرناً خطاباً حول الجنس لم يعد لديهم اليوم مفهوماً للجنس في اللغة التي يكتبونها ويتكلمون بها".